wadod.org

التفسير الديني
في المعتقدات العراقية والمصرية القديمة

الأستاذ صالح جبار عبود القريشي

ـ المبحث الأول ـ
الديانة في العراق القديم

إن العراقيين القدامى هم قوم اعتقاديون منذ الأزل، وإن حضارتهم القديمة تعد من الحضارات الأصيلة الأولى التي تضمنت ابتكارات وإنجازات حضارية وأفكاراً أصيلة تميزت بها، وقد تأثرت بها الأمم الأخرى، وإن المعتقدات الدينية في هذه الحضارة العريقة تظهر واضحة المعالم في كل تصرفات من عاش على هذه الأرض ـ أرض بلاد الرافدين القدامى.

فقد أدّى الدين أدواراً مهمة في حياة من سكن هذه الأرض وأثّر في كل جانب من جوانب حياتهم، وكان الدين في العراق ومنذ بداية العصور التاريخية يتصف بالنضج والتكامل، حيث كان لكل عنصر من عناصر الطبيعة والحياة إله خاص ومتميز[1].

وللتأمل في تمييز الخير من الشر عُرْفٌ عرفه الإنسان، وعرف أنهما صفتان متنافرتان لا يمكن أن تلتقيا في كيان واحد من مخلوق معين، وهذا دليل على الإنسان الأول فرّق بين شعائر السحر والشعوذة وبين شعائر العبادة، ولما كان الإنسان توّاقاً إلى حب التطور، فقد ظل يتدرج في مراقي الحضارة وتطور عقله، وفي نفسه نزعة لمعرفة القوة المسيطرة على الكون وهو جزء منه، حتى قام بعبادة رموز اعتقد أنها صاحبة هذا التنظيم للكون واتخذها آلهة،

---

(١) د. سامي سعيد الأحمد وآخرون: العراق في موكب الحضارة ـ الأصالة والتأثير ـ ج ١، ص ١٤٤.

wadod.org

فاتخذ إلهاً للخير سماه «إله النور»، وسمى الآخر الذي يقابله «إله الظلام» ممثلاً بالشر، في حين أن هذا الشعور لم يكن عن بعد حيث النفس ذو النزعة التوحيدية ومنذ نشأته الأولى وإن لم تكن هذه النزعة متبلورة وناضجة[١].

وبهذا يكون للإنسان العراقي دور في تسيير حضارته وتاريخه لأنه العامل الحاسم في سير الحضارة والتاريخ، لذلك فهو على علاقة وثيقة ببيئته واستغلاله لتلك البيئة والتفاعل معها. ونتيجة لهذه العلاقة الوثيقة بين الإنسان الذي عاش في بلاد وادي الرافدين مع معتقداته في أقدم العصور يتحتم علينا أن نضع بين أيدينا معاني لكلمة (عراق) والتي تشتمل على احتمالات ثلاثة:

١ ـ إن عبارة (عراق) هي عبارة عربية أصيلة.
٢ ـ إنها معربة من أصل فارسي.
٣ ـ إنها ترجع في الأصل إلى تراث لغوي من العراق القديم.

وإذا تناولنا الاحتمال الأول، فقد عنت العبارة عدة معانٍ منها أنها تعني (الشاطىء) و (شاطىء البحر) و (سيف البحر) أو أنها تعني الشاطىء مطلقاً أو عموماً.

وكان أهل الحجاز يسمون البلاد المجاورة للبحر عراقاً، ومن المعاني الأخرى في بيان هذه المفردة ـ أعني العراق ـ فإنها تعني سفح الجبل المتاخم للأطراف الشمالية والشرقية.

أما إذا تناولنا الاحتمال الثاني ـ الفارسي ـ فقد اختُلف في معناه، فقال بعضهم: إنها تعني الساحل بالفارسية.

في حين ذكر الخوارزمي في (مفاتيح العلوم) أن تسميتي (عراق) و (إيران) غلط، والصواب فيهما (إيراك) بالكاف الفارسية، وأنها أصل اللفظتين إيران والعراق. والى مثل هذا الرأي ذهب الباحث الآثاري (هرتسفلد) من أن (عراق) كلمة معربة عن كلمة (إيراك) الفارسية التي تعني البلاد السفلى[٢].

أما إذا تناولنا الاحتمال الثالث، الذي يعني إرجاع المفردة إلى التراث اللغوي من العراق القديم فلا يمكن ترجيحه على الاحتمالين الآخرين.

وهذا الرأي أو الاحتمال حريٌّ أن يُهتَم به لأن المفردة قد ترجع في أصلها التراثي إما من أصل سومري أو لقوم آخرين من غيرهم، ربما استوطنوا السهل الرسوبي منذ أبعد عصور ما قبل التاريخ. وأنه مشتق من كلمة تعني المستوطن ولفظها (أوروك) أو (أونوك) وهي الكلمة التي سميت بها أشهر المدن السومرية (الوركاء)، كما أن الكلمات المشهورة الأخرى مثل

---

(١) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان، مطبعة الكتاب العربي، مصر، ص ٧.
(٢) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط ١ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣ م، مطبعة الحوادث ـ بغداد، ج ١، ص ٧.

wadod.org

(أور) و (لارسا) هي ذات علاقة بها[١].

أما المؤرخ الشهير (أومستد Omested) فهو يرى أن أول استعمال لكلمة (عراق) ورد في العهد الكشّي (منتصف الألف الثاني ق. م) أكدته وثيقة تاريخية يرجع تاريخها إلى حدود القرن الثاني عشر ق. م وهو الأصل العربي لبلاد بابل كما يراه المؤرخ أعلاه. ثم تطور استعمال المصطلح أو المفردة (عراق)، حيث كان أشهر استعمال له خلال القرنين الخامس والسادس الميلادي حيث كثر بروزه في الشعر الجاهلي[٢].

وإن أقدم أشكال الحكم في العراق كان في مطلع الألف الثالث ق. م وكان على هيئة ما يسمى بـ (دولة المدينة) فكان الحكام السومريون الذين حكموا في دول المدن يسمي واحدهم نفسه ـ حاكم المدينة ـ مثل حاكم لجش وحاكم أور، أما الحاكم (لوكال زاكيزي) وهو من حكام عصر فجر السلالات فكان يسمى (ملك الإقليم)[٣]. وبحلول هذا العصر تقريباً ظهر مصطلح (بلاد سومر) الذي يمثل القسم الجنوبي من السهل الرسوبي، و (بلاد أكد) الذي يمثل القسم الأوسط من السهل نفسه، ويذكر بأنه لا توجد حدود طبيعية واضحة بين البلادين.

و (بلاد أكد) تعني اليوم ابتداءً من حدود بغداد أو فوق بغداد وإلى مدينة الحلة باتجاه الجنوب[٤].

أما (بلاد سومر) فهي المتمثلة حالياً في محافظتي الناصرية والديوانية التي تشمل مدينة (نفر) شمال سومر و (الوركاء) و (لارسا) و(أدب) و (شروباك) و (لكش) و (تلول الهياء) و (أوما) و(زبلام) وغيرها. أما أشهر بلاد أكد فهي (أكد) وموقعها الآن بين (الحلة) و(المحمودية) و (بابل) و (كيش) و (بورسبا) وغيرها.

واستعمال (سرجون Sergon) مؤسس سلالة أكد (٢٣٧١ ـ ٢٢٥٥ ق. م) لقباً سياسياً هو (ملك الجهات الأربع) أو (ملك العالم أو الكون) وهو بالأصل (لقب ديني خصص لكبار الآلهة)، وهذا اللقب يعد إشارة واضحة على تعلق ألقاب الملوك لسكان وادي الرافدين قديماً بالمعتقدات الدينية والاهتمام بها.

واستعمل المؤرخ (هيرودوتس Herodotes) مصطلح (بلاد بابل) ـ بابيلوتيا ـ و (بلاد آشور) ـ أسريا ـ لإطلاقه على القطر كله أو على أجزائه الوسطى والجنوبية. كما استعملوا تسمية (كالديه) أو (كلديه) على بلاد الكلدانيين بين القرنين السابع والسادس ق. م.

وأورد المؤرخون العرب مصطلح (إقليم بابل) و (أرض بابل) كما أورد هذه التسميات

---

(١) المصدر نفسه: ج ١، ص ٨.
(٢) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات، ج ١، ص ٨.
(٣) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات/ ٨ .
(٤) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٠.

wadod.org

البلدانيون العرب[١].

وظل هذا المصطلح متوارث الاستعمال منذ العهد البابلي القديم (الألف الثاني ق. م)، ويذكر لنا المؤرخون بأن العلاقة بين الملك (العاهل) وبين المعتقدات الدينية كانت وطيدة حيث أن كل فعل يصدر من العاهل هو ذو علاقة بمعتقده الديني، ولا يعزى عنده إلا لشعور ديني، ويتجسد هذا الشعور من خلال الفكر السياسي العراقي القديم الذي يوضح بأن الإله الأعلى هو الذي يمسك بالسلطة السياسية، وكان يقوم بمهمة تعيين إله بالنسبة لكل مدينة، وهذا الإله كان بمثابة الإله الملك بالنسبه لها. وعلى نفس المنوال نرى أن الإله الملك المحلي كان يقوم بمهمة تعيين الأمير الذي يكون بديله على الأرض وذلك برفع بصره باتجاهه والنطق باسمه[٢]. ويتضح ذلك من خلال النص التالي:

«عندما نظر (أنليل Anlil) ملك السماء والأرض بنوع من الفرح إلى (مردوك) الابن الأكبر للإله (أيا) وسماه باسم (سام) أسس من أجله مدينته المقدسة...»[٣].

ومن خلال النصوص التاريخية التي وصلتنا نستنتج بأن (بابل) تعد مركزاً دينياً للفكر العراقي القديم حيث «نستطيع القول، وبقدر ما يتعلق الأمر بممارسة العبادات، إن لدينا إمكانية الوصول إلى مصادر الأخبار المباشرة عن الحياة الدينية التي نشأت وتطورت على نطاق واسع في بابل ذلك أن الأوصاف العديدة للشعائر الدينية والتي ظلت محفوظة ذات قيمة خاصة ليس بسبب الضوء الذي تلقيه على كل تفاصيل المراسيم التي تراعى في الأعياد...»[٤].

وما علينا إلا أن نلجأ إلى التحليل المثابر لكي نستخلص من هذه النصوص الفكرة البابلية عن عنصري الخير والشر[٥]. ففي عبارات خاصة تمجد مقدمة (شريعة حمورابي) تأسيس مدينة (بابل) وتعيين الإله (مردوك Merdok) إلهاً ملكاً عليها فقد جاء فيها:

«عندما قضيا: الإله آنو المتسامي، ملك الأنوناكي والإله (أنليل) سيد السماء والأرض
مقرر مصائر البلاد
قضيا لـ (مردوك) الابن الأكبر للإله (انكي)
أن يتمتع بقدسية الإله (أنليل) على كل البشر
وجعلاه عظيماً بين الايكيكي

(١) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٠ وما بعدها.
(٢) د. عبد الرضا الطعان: الفكر السياسي في العراق القديم، ١٩٨١ م ـ بغداد، دار الرشيد للنشر، ص ٣٩٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٩٢.
(٤) جورج كونتينو: الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي، ط ٢، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م، دار الشؤون الثقافية ـ بغداد، ص ٤٠٠.
(٥) المصدر نفسه: ص ٤٠٠.

wadod.org

وسميا (بابل) باسمها العظيم
وجعلاها المستقيمة في العالم
وثبتا له في وسطها ملوكية أبدية
أسسها ثابتة كالسماء والأرض»[١].

وتشير لنا النصوص التاريخية بأن حضارة وادي الرافدين بلغت أوج عظمتها في الطور الثالث من عصر فجر السلالات.

وتطور الحضارة يعني تعلق تلك الحضارة بالمعتقدات الدينية وتطور الفنون وخصوصاً فن النحت، كما اتضح ذلك جلياً في الأرقام النفيسة التي وجدت في مواضع منطقة (ديالى)، والعثور على آثار المعابد التي تم تشييدها في هذا العصر، كما ظهرت المقابر الملكية في مدينة (أور)[٢]. على أنه يمكن ملاحظة درجة معينة من التطور في أخلاق الإنسان العراقي القديم ومعتقداته الدينية بتطور الزمن. حيث يلاحظ من قصيدة (ملحمة گلگامش) باحتوائها على عبارات قديمة جافة والتي يذكر في قسم منها:

إن الآلهة سيئي الطباع يضربون أفخاذهم ويقضمون أصابعهم ويعجزون عن الاجتماع دون أن يشربوا إلى حد الإفراط. إن اللعنة التي تصب على رسول الآلهة تشبه اللعنة التي تصب على عاهرة المعبد في ملحمة گلگامش[٣].

فالصورة العامة التي يمكن الحصول عليها من أساطير بلاد ما بين النهرين يرثى لها، إذ نجد الكبرياء والعنف عند الآلهة بالإضافة إلى أن طبعها يتصف بالشراهة والجموح وانعدام الإيمان وظهور الحقد. فهي خلاصة سذّج الناس الذين تبعث هذه الآلهة من تصوراتهم[٤].

ومن هنا تبرز لدينا فكرة أن أية عقيدة يجب أن تحمل طابع العصر الذي صاغها أو تقبلها، حيث كان الشعور الديني يعبر عن مماشاة حضارات الماضي العظيمة التي دامت قروناً عديدة من الزمن، وبذلك يكون البابلي مشبعاً لرغبته التي تدعوه لأن يكون سجلاً دائماً عن الحقائق الدينية الأساسية.

وقد وصلنا والحمد لله إلى ما يثبت الحضارة التي كانت سائدة في العراق القديم وأنها أوفر بكثير من الحضارة المصرية القديمة بسبب هذه الإثباتات المدونة التي هي على شكل أرقام أو ألواح من الطين المفخور لتبقى آلاف السنين، وقد تم العثور على أكثر من مائة ألف لوح طين تتناول بإسهاب مختلف جوانب الحضارة العراقية القديمة، ومن أهم مصادر تلك الحضارات هي

(١) د. عبد الرضا الطعان: الفكر السياسي في العراق القديم، ص ٣٩٢.
(٢) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١، ص ٢٦٢.
(٣) جورج كونتينو: الحياة اليومية، ص ٣٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٣٦.

wadod.org

(الحضارة السومرية) التي تميزت بظهور المدن كالوركاء وأور ولجش وأوما وأريدو وكيش التي ترجع في حضارتها إلى حضارات حسونه وسامراء وحلف في شمال العراق.

ـ المبحث الثاني ـ
تعدد الآلهة عند العراقيين القدماء
وبعض أسمائها ودلالاتها ونشوء المعابد

وكما ذكرنا آنفاً فقد كان لهذه الحضارة العريقة أكبر الأثر في تأصيل المنحى الديني عند ذلك الشعب القديم، الذي كان يربط بين الظواهر الطبيعية وبين القوى الإلهية مما حدا إلى ظهور جملة من الطقوس الدينية المهمة[١].

ولاهتمام العراقيين بتلك الطقوس الدينية فقد اتخذوا لهم أرباباً كُثُراً وصل عددهم إلى الألفي إله أو ما يزيد على ذلك، وأهم هذه الآلهة:

(آنو) ملك الآلهة والبشر، (أنليل)، (ننورتا)، (أداد)، (ننخرساك)، (ننكال)، (أيا)، (شمس)، (سين)، (عشتار)... إلخ. وكان هنالك إلهاً يرمز إلى كل مدينة عراقية، يعتبر رمزاً يختص بها، حتى سمي كثير من الناس بأسماء الآلهة آنذاك، وقام برعاية هذه الآلهة أناس وكهنة من طبقات تتدرج في الأهمية وفي اختصاصات متباينة[٢]، ويلاحظ أن الدين لم يلعب دوراً مهماً، كما لعبه عند العراقيين مقارنةً ببقية شعوب الأرض، وهذا ما نجده جلياً في العدد الكبير من الآلهة التي عبدها العراقيون القدماء، حيث نجد أن كل الوثائق العراقية القديمة كانت ذات مسحة دينية سواء كانت قضائية أم طبية أم ملكية أم غير ذلك[٣]، ويستدل من ذلك أن الإنسان الذي كان يعيش في العراق القديم كان يشعر على الدوام بأنه معتمد كلياً في استمراره بالوجود على إرادة الآلهة، وكان يقيم لها الصلوات، وينشد لها التراتيل في أروقة المعابد، وكانت المشاعر والأحاسيس تتوجه إليها بكامل صدق العاطفة، فلقد وضع سكان ما بين النهرين كل ثقتهم بآلهتهم واعتمدوا عليها كلياً[٤].

لقد تعمق الدين في نفوس العراقيين القدماء، وكان اعتقادهم الديني اعتقاداً فطرياً منسجماً مع تفكيرهم ونمط حياتهم وطبائعهم. وإن سكان وادي الرافدين لم يتساءلوا على الإطلاق عن

---

(١) د. فاضل عبد الواحد علي: عشتار ومأساة تموز، ١٩٨٦ م ـ بغداد، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، ص ٢٠.

(٢) د. سامي حميد الأحمد: العراق في موكب الحضارة، ج ١، ص ١٤٤.

(٣) د. سامي حميد الأحمد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، سلسلة الموسوعة التاريخية، هيئة كتابة التاريخ ١٩٨٨ م ـ بغداد، ص ٥.

(٤) جورج رو: العراق القديم في التاريخ، ترجمة حسين علوان حسين، ١٩٨٤ م ـ بغداد، ص ١٢٨.

wadod.org

نوعية القوة التي قامت بخلق الآلهة الرئيسة، بل اعتبروا وجودها من الأمور الأزلية التي لا تحتاج إلى نقاش، وأن هذه الآلهة هي التي قامت بخلق الكون والإنسان[١].

لقد لازم هذا التطور في المعتقدات الدينية عند العراقيين منذ الأزل ولم يتخذ طابعاً جامداً بحقبة زمنية معينة[٢].

ومن الأمور التي دعت العراقيين القدماء إلى تأصلهم بمعتقداتهم الدينية ارتباط تلك العقائد بالأمور العامة من حياتهم كما أسلفنا، فكانت عندهم تلك المعتقدات ذات علاقة باقتصادهم وبمواردهم وأنهارهم وخصوصاً الرافدين العظيمين لأهميتهما في نظام الري الذي تعتمد عليه الزراعة التي تعتبر عماد حياتهم الاقتصادية بل شريانها الذي ينبض، حتى دعاهم ذلك إلى تخصيص آلهة معينة خاصة بهذين النهرين، حيث قدّس العراقيون آلهة المياه والينابيع وعبدوا الآلهة (أنكي) والإله (أيا) واتخذوا من دجلة والفرات شعاراً مقدساً وعنواناً لمعتقداتهم تلك[٣]، واتخذوا للنهرين شعاراً يتمثل في كأسٍ فوارة أو إناء فوار يجسد العلاقة بين النهرين واعتبروا أن هذا الإناء الفوار منبع لمجريين رئيسين يتكون كل منهما من ثلاثة فروع تمثل الروافد التي تصب في دجلة والفرات، ينبعان من مصدر واحد[٤].

ولما كانت الطقوس الدينية عند العراقيين القدماء تحتاج إلى أماكن خاصة تقام بها تلك الطقوس، فقد كانت المعابد هي التي تفي بغرض إقامة تلك المحافل والطقوس والشعائر[٥].

وكان عندهم دائماً أن المعبد يحتل مركز القرية أو المدينة، ثم تقام حوله بقية معالم المدينة[٦].

لذلك نرى أن للأديان والمعتقدات عند العراقيين القدماء تجسُّد فكرة الإنسانية نحو الكمال الذاتي المستوحى من الآلهة عندهم، التي ترى إقامة المجتمع على أساس الفضيلة والخير والعدالة[٧].

واستلهام هذه المعاني الإنسانية العميقة لدى العراقيين القدماء إن دل على شيء فإنما يدل على شدة التمسك العقائدي المتأتي من الدين ذي الأثر المهم في تنظيم حياة المجتمع، لأن

---

(١) د. فوزي رشيد: حضارة العراق، ١٩٨٥ م ـ بغداد، مطبعة دار الحرية، ج ١، ص ١٤٩.
(٢) د. سامي سعيد: المعتقدات الدينية، ص ٩ وما بعدها.
(٣) أحمد سوسه: تاريخ حضارة وادي الرافدين، ١٩٨٦ م ـ بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ج ٢، ص ٣٢.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٨ وما بعدها.
(٥) د. سامي سعيد: المعتقدات الدينية، ص ٤٦.
(٦) د. فوزي رشيد: حضارة العراق: ج ١، ص ١٨٥.
(٧) د. عبد الباقي البكري وآخرون: المدخل لدراسة القانون، ١٩٨٢ م، مطابع جامعة الموصل، ص ٨٧.

wadod.org

أغلب قواعده غايتها ضبط سلوك الأفراد والجماعات على السواء وإطاعة الأوامر التي تؤدي بالإنسانية إلى طريق السداد وتدعو لنبذ وتجنب النواهي التي لا تهدف إلى فائدة المجتمع. وقد استمر الاعتقاد بالآلهة والتعلق بالمنحى الديني عند العراقيين القدماء وتطورت الأفكار العقائدية عندهم، حتى تعلق ذلك بعبادة الأجرام السماوية وخاصة الشمس والكواكب، ثم مظاهر الطبيعة كالماء والهواء، وكان هذا الشعور مدعاةً لتعدد الآلهة عندهم، ثم ساقهم هذا الشعور المستمر والتعلق الدائم إلى تفكيرهم بروح الإنسان والحياة والموت والقبر والبرزخ، فاعتقد السومريون مثلاً بانفصال الروح الإنسانية عن الجسد بعد الموت بحسب التقاليد الدينية، ولم تتولد عندهم صفة الثواب والعقاب (أي الجنة والنار) واعتقدوا بأن هذه الأمور دنيوية وليست أخروية[١].

(١) داوود سلمان عبد علي العزاوي: تاريخ العلاقات العراقية المصرية، ص ٢٦.

wadod.org

التفسير الديني في المعتقدات المصرية القديمة

مقدمة:

إن من يريد أن يقوم بدراسة التاريخ المصري القديم، سيجد بأن المجتمع المصري القديم يمتاز بظاهرتين أساسيتين هما القدم والديمومة. أما من ناحية الصفة الأولى (القدم)، فإن أرض مصر تعتبر بإجماع الباحثين من أقدم مواطن الحضارة التاريخية، إن لم تكن أقدمها في كثير من ضروب المدنية والحضارة، حيث أن عناصر تلك الحضارة تعود إلى عصور قديمة وساحقة في الزمن تمثل عصور قبل فجر التاريخ أي العصر المعروف بـ (عصر ما قبل التاريخ) أو (عصور ما قبل التاريخ).

أما بما يخص الصفة الثانية (الديمومة) فإن التاريخ المصري (الفرعوني) يعد من أطول التواريخ، حيث استطاعت مصر أن تحتفظ بحضارتها بل بتطورها، رغم المراحل والحقب والعصور التي رافقتها.

فقد رافق هذا التطور (نشوء الزراعة وتطورها) بأرض خصبة حيث كان لنشوء هذا المرفق الاقتصادي المهم قرب نهاية الألف السادس ق. م رافقه استيطان الإنسان المصري القديم على جوانب النهر خلال بقية عصر ما قبل التاريخ، ثم عصر الأسرات.

لذلك فقد ساعدت الزراعة على تنظيم حياة الإنسان المصري، ولا بد أن يكون مرافقاً لهذا التنظيم الحياتي، تنظيم سياسي، والتنظيم السياسي معناه قيام حكومات تكفل الطمأنينة للإنان المصري، ومن ثم رعاية النظم الاقتصادية والاجتماعية ثم تقدم الحضارة في دفع الإنسان إلى استغلال بيئته الطبيعية الذي يعني تفوق المصري القديم في جوانب الحياة العامة، مما حدا به إلى الاهتمام بمشاعره ومعتقداته الدينية، ونتيجة لنمو الشعور الديني عند قدامى المصريين صار الجانب الديني من المبررات القوية لاحتمال اعتقاد المجتمع المصري القديم بوجود الارتباط بين ملكهم وبين القوى الإلهية المتحكمة في كافة جوانب حياتهم.

الديانة المصرية القديمة

خلال القرن التاسع عشر الميلادي اكتشف العلماء ومن خلال الوثائق التاريخية تفاصيلَ عن حقيقة المصريين وما يتعلق بدينهم وشرائعهم ومدنيتهم وعاداتهم وتقاليدهم وآدابهم، وقد وجدت تلك الوثائق مكتوبة على أوراق البردي (وقد ساهمت صناعة ورق البردي في مصر مساهمة عظيمة في تطور الحضارة لدى المصريين حتى عدت صناعته علماً خاصاً يسمى بعلم

البردي)[١]، ومن الكتابات والنقوش التي وجدت مكتوبة على واجهات المعابد والهياكل والقبور والمسلات والأعمدة وأغطية التوابيت داخلها، كانت أدلة منقولة تدلل على حضارات المصريين القدماء كوثائق دالة على ذلك[٢].

ويؤكد العالم الآثاري (مانيتون Maniton) في مذكراته بأن هنالك العديد من الأنبياء والرسل الذين بعثوا إلى مصر وقاموا بتبشير رسالات إلهية في أرضها وهؤلاء الأنبياء قاموا أيضاً بدعوة الناس في الهند وقارة آسيا إلى توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، ويؤكد كذلك بأن الدعوة في أرض مصر سبقت الدعوة في الهند، وأن نبي المصريين هو إدريس (عليه السلام) وهو الذي انتقل إلى الهند فبشر برسالته هناك[٣].

وتعتبر المقابر الملكية من الوثائق التاريخية ذات العلاقة بالمعتقدات الدينية للمصريين القدماء، وتعتبر من مظاهر العمارة الدينية في مصر القديمة، فلو تتبعنا الملوك الأوائل في (عصر الأسرات) والذين شيدوا أكثر من مقبرة لهم، فإن مقبرة الملك (حورعها) تعتبر من أولى المقابر التي عثر عليها في (أبيدوس) وعثر كذلك على آثار تحمل اسمه في قبر آخر أكبر من ذلك في (سقاره). وقد كشفت الحفائر والتنقيبات في هاتين المقبرتين عن مخلفات أثرية تحمل اسم ذلك الملك (حورعها) ومعظمها من الألواح الخشبية وأختام طينية وأوانٍ فخارية صغيرة في (سقاره) وجميعها تحمل اسمه[٤].

وتعتبر إشارة عالم الآثار (مانيتون) بأن أرض مصر القديمة هي مهبط الرسل والأنبياء، اعتبرت ذكر إدريس (عليه السلام) كنبي أشارت إليه الحقائق التاريخية، من خلال الوثائق والألواح تعني بأن شعب مصر القديمة هم أناس موحدون دعوا إلى عدم الإشراك بالله تعالى، حيث ذكرت المصادر بأن تأثير النبي إدريس (عليه السلام) في المصريين كان تأثيراً كبيراً، وذكرت تلك المصادر بأنه (عليه السلام) كان يسمى (أخنوخ) في العربية، وسمي (خانوخ) في العبرية و (خوروس) في اللغة الهيروغليفية و (هرماكس) في اللغة اليونانية، وسماه البطالسة بـ (أغناذي مون)، وهو إدريس مهائيل بن قيثان بن آنوس بن شيت بن آدم (عليه السلام)[٥]. لقد اعتقد المصريون القدماء ومنذ القدم بالوحدانية لله تعالى ولا شريك له في خلقه، ويؤمنون بأزليته

---

(١) هـ. إيدرس بل (أستاذ شرف بعلم البردي بجامعة أكسفورد): مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح الغربي ـ دراسة في انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها، نقله للعربية د. عبد اللطيف أحمد علي، ١٩٦٨ م ـ مصر، نشر دار النهضة العربية، ص ٦.

(٢) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان، طبع دار الكتاب العربي ـ مصر، ص ٢١.

(٣) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان، ص ٢١.

(٤) د. نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، نشر دار المعارف في الاسكندرية ـ مصر، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٥) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان، ص ٢١.

wadod.org

سبحانه ولا بداية له ولا نهاية، يفني ولا يفنى، كل شيء زائل دونه وهو باقٍ، وعرفوه باسم (أتون) وجعلوا لهذا الاسم معنيين، الأول: ظاهر، والثاني: خفي أو باطن وأعطوا الاسم الظاهر معنى أنه إذا ظهر بمثاله النوراني (الشمس) سمي (آمون)، أما الخفي فهو الاسم الذي قام به كل الوجود، هو الذي يمنح العطايا ويأخذها متى يشاء، وبذلك سمي (رع) ومن هنا بدأت نشأة تسمية النوعين (آمون ـ رع)[١]، وقد دلت الأخبار التاريخية عن طريق الكتب والألواح والرُّقُم بأن المصريين القدماء قد تغنّوا وترنموا بأناشيدهم تلك بأن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وخلق له عينين وشفتين وهداه النجدين وخلق له السمع والبصر، وهم يعترفون بعبوديتهم لله تعالى ولا مولى لهم إلا الله[٢].

وتدل الآثار الملكية المنتشرة في مصر وفي أماكن متفرقة على تبلور القيم الدينية السياسية في المجتمع المصري القديم، بل وحتى العادات الاجتماعية المتوارثة في ذلك المجتمع[٣]. وإذا ألقينا نظرة عميقة على انتشار المقابر في مصر القديمة واهتمام الملوك المصريين القدماء وحاشيتهم بتشييد المقابر بحجم كبير جداً، فإن ذلك يعني أن الشعور العقائدي باليوم الآخر كان متواصلاً لديهم وأن الفناء والخلود كان في مخيلتهم دائماً وشاغلاً لتفكيرهم أينما حلّوا ورحلوا في أقاليمهم التي حكموا فيها، حيث لم يظهر كما يبدو نظام المدن في مصر، بل وجد فيها نظام الأقاليم التي كان عددها (٤٢) إقليماً والتي توحدت فيما بعد على شكل مملكتين، واحدة في الجنوب وأخرى في الشمال، اللتان نتج عنهما توحيد مصر في عهد السلالة الأولى حوالى ٣٠٠٠ ق. م[٤].

وصارت مدينة (منفس) في جنوب الدلتا عاصمة لمصر الموحدة، وقد لعبت الأهرامات الفرعونية في مصر دوراً مهماً في بناء ونشوء الحضارة المصرية، فبعد الوحدة السياسية بدأت حضارة مصر تتطور وخاصة في عصر الأهرام حوالى ٢٧٨٠ ـ ٢٢٧٠ ق. م وهو العصر الذي وصلت فيه حضارة مصر ذروتها[٥].

ومن خلال متابعة النصوص والوثائق التاريخية يتضح أن الملوك المصريين قد ساهموا في بناء الأهرامات باهتمام بالغ فيلاحظ أن الملك (سنفرو) قام ببناء هرمين، أولهما الجنوبي والآخر الهرم الشمالي، وقد لوحظ أن هذه الأهرامات العظيمة كان ينشأ إلى جنبها أهرامات صغيرة، ويحتمل أن تكون هذه الأهرامات الصغيرة بأنها كانت مدفناً متميزاً لاحتواء أحشاء الملوك[٦].

---

(١) محمد فؤاد الهاشمي، الأديان في كفة الميزان: ص ٢٢ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣.
(٣) نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري، ص ٢٣٧.
(٤) داود سلمان عبد علي العزاوي: تاريخ العلاقات العراقية المصرية، ص ١٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٠.
(٦) نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري، ص ٢٣٧.

wadod.org

وهناك ملاحظة مهمة أخرى بأنه لوحظ أن لكل ملك أو عائلة ملكية أكثر من مقبرة واحدة، وقد فسر علماء الآثار والمتخصصون هذه الظاهرة وأرجعوها إلى تفسيرين:

أولهما: بأن جبانة (مقبرة) (أبيدوس) الملكية احتوت على المقابر الحقيقية لمدفن الملوك، بينما احتوت جبانة (سفاره) على مقابر النبلاء وكبار رجال الحاشية، أما ثاني التفسيرين فيذكر أن سبب تعدد المقابر للملوك تفترض العكس حيث تعتبر أن الجبانة الملكية في (سفاره) هو مقر دفن الحاشية، ومقبرة (أبيدوس) مقر لدفن الملوك[١]. والملاحظ أن الديانة المصرية ظلت تنتقل من طور إلى آخر تنازلياً، فتطورت من عبادة إله واحد ثم عبادة آلهة ثلاثة ثم آلهة تسعة ثم ضوعف التاسوع بازدياد مستمر حتى بلغ عدد الآلهة المعبودة يتجاوز المائة إله، تتنوع أسماؤهم بين اسم فلك أو وصفه لكوكب أو تعظيم لظاهرة طبيعية، أو تقديس لحيوان أو طير، حتى عادت بعض سكان المدن تعبد ملوكها على أنها آلهة لهم. حتى عاد المصريون القدماء إلى حالة الإشراك في تعدد الآلهة، وكانوا يقدمون القرابين والبخور فصار مجتمعهم مجتمعاً وثنياً إلى أن هاجم الفرس واليونان مصر وأغاروا عليها فقاموا بهدم المعابد والهياكل والتماثيل وحاربوا الكهنة أينما حلّوا، وحينما فتح الرومان مصر هدموا هياكلهم وأزالوا كثيراً من معابدهم وأبطلوا عباداتهم حتى ختم الأمر بأن أمر الامبراطور (تيودور) الروماني بتوجيه تعليماته وأوامره بإلغاء الديانة المصرية القديمة واعتبار الدين النصراني ديناً رسمياً لمصر.

وعندئذ تحررت مصر من مرحلة الإشراك الذي تلى التوحيد ثم التوحيد مرة أخرى بعد الإشراك[٢].

وقد ظن المصريون المتأخرون الذين أعقبوا حكم الكهنة، أن تلك التماثيل التي عبدوها هي آلهة، فكانت عبادتهم لها تقديساً لها. حيث تعددت الآلهة بتعدد المدن وصارت الأقاليم والمدن مليئة بالتماثيل، تختلف عن معبودات المدينة الأخرى من تلك التماثيل، فقد كان موطن (أزوريس) في (أبيدوس) و (فتاح) في (منفيس) و (آمون) في (طيبة) و (هوروس) في (آدفو) و (هاتور) في (دندره)، وكانت مدينة طيبة دون المدن الباقية ملئى بالتماثيل والمعابد، حتى ثار (أخناتون) لتوحيد الإله وعبادة إله واحد بعد تلك الآلهة المتعددة[٣].

خلاصة البحث:

من خلال ما تقدم فيما عرضناه من بحث، نستطيع أن نستشف جملة أمور مهمة وبارزة

---

(١) نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري: ص ٢٣٩.

(٢) محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان، ص ٢٦.

(٣) واليس بدج: الديانة الفرعونية، أفكار المصريين عن الحياة الأخرى، ترجمة نهاد خياطة، ط ١، ١٩٨٦ م ـ نيقوسيا، قبرص، ص ٢٥.

wadod.org

تتعلق بالمعتقدات الدينية القديمة للعراقيين والمصريين القدماء والتي يمكن إجمالها بما يلي:

١ ـ إن كلا الحضارتين العراقية والمصرية موغلة في القدم، ولا غبار على قدمهما، ولكن إذا روعيت مسألة الأسبقية في نشوء الحضارة فقد ذهب العلماء والمؤرخون حتى نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي إلى أن مصر أكثر قدماً من العراق، ولكن التنقيبات والاكتشافات الآثارية المتواصلة التي جرت في العراق في النصف الأول من القرن العشرين دللت وأثبتت بأن الحضارة الناضجة بكل عناصرها الأساسية بدأت في العراق قبل غيره من البلدان، بل قبل مصر بحوالى ١٠٠ ـ ٢٠٠ سنة، والجدير بالذكر أن المصادر الدينية تشير إلى ذلك أيضاً.

٢ ـ إننا حينما نذكر مصطلح (الحضارة) فإن التطورات الاعتقادية (الدينية) يجب أن ترافق هذا التطور في الحضارة، لأنه كما ذكرنا في البحث بأن الحضارة في كلا البلدين لم تقف عند حد معين، وكذلك الدين الذي لم يقف عند حد معين في شعور كلا الشعبين، وهذا يدل على أن المعتقد الديني والحضارة يسيران وفق خط واحد، فإذا قلنا تطور الحضارة، فهذا يعني التطورات الاعتقادية الدينية والعكس صحيح.

٣ ـ تميزت الحضارة العراقية بظهور المدن كظاهرة بارزة وميزة واضحة في معالمها كدول الوركاء وأور ولجش وأوما وأريدو وكيش وغيرها من المدن، ونلاحظ أيضاً نشوء الحضارة السومرية في هذا البلد التي ترجع في أصولها إلى حضارة (حسونه) و (سامراء) و (حلف) في شمال العراق كما أثبت ذلك علماء الآثار والتاريخ القديم.

أما في مصر القديمة فلم تعد المدن ميزة بارزة في نشوء حضارتها، بل برزت ظاهرة نشوء الأقاليم التي نتج عنها نشوء الممالك ما لبثت مصر أن وتوحدت بعدها في مدينة (منفس) في جنوب الدلتا التي عادت عاصمة لمصر الموحدة.

٤ ـ نلاحظ أن كلا البلدين اتجها في عبادة مشتركة للأجرام السماوية والظواهر الطبيعية وخاصة الشمس والماء والهواء فكان لزاماً على الإنسان العراقي والمصري أن يلتزما بظاهرة تعدد الآلهة وفقاً لتعدد مصادر الأشياء المعبودة.

٥ ـ إن أهم ميزة للديانة المصرية القديمة اتصفت باهتمام المصريين القدماء اهتماماً بليغاً ببناء المقابر وتشييدها وتحنيط الموتى ومرجع هذا الاهتمام يعود إلى اعتقادهم برجوع الحياة إلى الجسد بعد الموت وإيمانهم باليوم الآخر، أما قدماء العراق فقد اعتقدوا بانفصال روح الإنسان عن جسده بعد الموت حيث تذهب الروح إلى العالم الآخر، ولو أن السومريين لم يعتقدوا بفكرة الثواب والعقاب (أي الجنة والنار)

٦ ـ يلاحظ أن قدماء المصريين مالوا إلى تقديس بعض الحيوانات في عباداتهم وخاصة الأليفة منها على عكس قدماء العراق فيلاحظ أن نظرتهم إلى هذه الحيوانات كانت عادية.

wadod.org

٧ ـ يلاحظ من خلال البحث والدراسة أن كلا الديانتين اهتمتا بالأخلاق والسلوك للأفراد وتجنب الأعمال الشريرة والميل إلى جانب الخير وحب الإنسانية.

٨ ـ تميزت الديانة المصرية لوحدها دون غيرها من بقية الديانات ببناء الأهرامات الضخمة والعالية، وهذا الأثر لوحده يعد دليلاً على بلوغ ذروة المعتقدات لقدماء المصريين وتعلقه بدينه القديم ومعتقده وحضارته.

٩ ـ يظهر أن للزراعة التي هي عماد التطور الاقتصادي وقياسه في كلا البلدين يظهر أن لهذا الركن الاقتصادي علاقة وثيقة بتطور الفكر الديني ويعد من التفسيرات المهمة لتطور المعتقدات لأن كلا البلدين غني بالزراعة فهذا وادي النيل، وهذا وادي الرافدين. ومنهما نشأ الإبداع في الاعتقادات الفكرية التي دعت كلا الشعبين أن يكونا في القمة من جانب التطور الفكري العقائدي. والدليل على ذلك أنهم اتخذوا آلهة تختص بالماء والهواء والشمس وهذه الأركان الثلاثة لا يمكن استغناء الزراعة عنها.

١٠ ـ يلاحظ وببروز بأن الوحدة السياسية في كلا البلدين قوية جداً ولكن كانت في مصر أقوى مما هي عليه في العراق، ولعل السبب يعود إلى أن التجانس السكاني والبشري في مصر أقوى مما هو في العراق. وبعبارة أخرى وعلى سبيل المثال فإن العنصر السومري في العراق لا يزال غامض الانتماء العرقي، حتى أن ذلك دعا بعض المؤرخين إلى إن السومريين انحدروا من خارج العراق، ولكن الدراسات الأخيرة تدل على أن السومريين جنس بشري من العراق وهاجر من شمال العراق إلى جنوبه في حوالى ٥٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق. م، حيث يتكون العراق من ملل وجماعات عرقية ودينية وقبلية كثيرة، لذلك كانت الوحدة السياسية في مصر أمتن مما هي في العراق.

١١ـ إنه يمكن القول أخيراً بأن كلا البلدين يعتبر أساس الأصالة ومنبع الحضارة في الفكر الديني والحضاري والعقائدي ومنهما انتقلت الحضارة والمدنية إلى العالم القديم وخاصة الفرس واليونان والرومان وغيرهم.

١٢ ـ أرجو أن ينال هذا البحث رضا المختصين في الديانات القديمة والتاريخ القديم الذي هدفنا من خلاله خدمة حضارة الأمة العربية ذات الأصالة والفكر والحضارة والتراث، ومن الله التوفيق والسداد.

wadod.org

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ أحمد سوسة: تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد ـ ١٩٨٦ م.

٢ ـ جورج رو: العراق القديم في التاريخ، ترجمة حسين علوان حسين، بغداد ـ ١٩٨٤ م.

٣ ـ جورج كونتينو: الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي، ط ٢، دار الشؤون الثقافية، بغداد ـ ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م.

٤ ـ داود سلمان عبد علي العزاوي: تاريخ العلاقات العراقية المصرية.

٥ ـ د. سامي سعيد الأحمد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، سلسلة الموسوعة التاريخية، هيئة كتابة التاريخ، بغداد ـ ١٩٨٨ م.

٦ ـ سامي سعيد الأحمد وآخرون: العراق في موكب الحضارة ـ الأصالة والتأثير ـ بغداد ـ ١٩٨٨ م.

٧ ـ د. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط ١، مطبعة الحوادث، بغداد ـ ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

٨ ـ د. عبد الباقي البكري وآخرون: المدخل لدراسة القانون، مطابع جامعة الموصل ـ ١٩٨٢ م.

٩ ـ د. عبد الرضا الطعان: الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر، بغداد ـ ١٩٨١ م.

١٠ ـ د. فاضل عبد الواحد علي: عشتار ومأساة تموز، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ـ ١٩٨٦ م.

١١ ـ د. فوزي رشيد: حضارة العراق، مطبعة دار الحرية، بغداد ـ ١٩٨٥ م.

١٢ ـ محمد فؤاد الهاشمي: الأديان في كفة الميزان، مطبعة دار الكتاب العربي، مصر.

١٣ ـ د. نبيلة محمد عبد الحليم: معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، نشر دار المعارف في الاسكندرية، مصر.

١٤ ـ هـ. إيدس بل: مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، دراسة في انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها، نقله للعربية د. عبد اللطيف أحمد علي، نشر دار النهضة العربية ـ ١٩٦٨ م.

١٥ ـ واليس بدج: الديانة الفرعونية ـ أفكار المصريين عن الحياة الأخرى ـ ترجمة نهاد خياطة، ط ١، ١٩٨٦ م، نيقوسيا، قبرص ـ ١٩٨٦ م.